المدرسة المثلى

والتعليم الذاتي

المدرسة المثلى هي المدرسة التي لا يمكث فيها الزائر بضع دقائق حتى يشعر بأن محيطها يختلف جدّ الاختلاف عن باقي المدارس في الغاية والنتيجة : فغايتها أسمى من غايات باقي المدارس ، ونتائجها أرقى ، فهي لا تعمل للامتحان أو الاعتزاز بالظواهر. وفي هذه المدرسة عدد كبير من الطلاّب وعدد كافٍ من المعلمين وبها ملعب وحديقة ، ومسرح ومكتبة .

أول خصائص هذه المدرسة منظر الطلاب وتفاطيعهم ، وعلى وجوههم نضرة النعيم ، بعيدين عن الكسل والخمول . فان مقتل العمر هو ضنّ الحركة والنشاط ، كما تجده حواليك في الطبيعة . إذن فمصدر الخمول هو المعلم الممل : ويقاس الفرق بين طالبين في ذلك ، بنسبة مقدرتهما على تحمل الملل الذي يعرض لهما في المدرسة بسبب عقم طرق التعليم ، فالطالب الذي يتحمل أكثر من غيره يكون نشيطاً ، والطالب الذي لا يتحمل يكون خاملاً .

الخصّية الثانية : هي حركة الطلاب الدائمة خلافاً للسكون المعتاد في المدارس الأخرى التي يُرى فيها الطّلاّب ينهكون قواهم في مزاولة أشياء متعبة ، كالاصغاء المتقطع بالتثاؤب لسماع درس التاريخ أو الجغرافيا أو العلوم أو غيرها من الدروس ، أو يحزون عملاً لا قيمة له كحل مسائل رياضية ميكانيكية أو الرسم من نماذج أو نسخ قطع الإنشاء من الأوح الاسود . أما في هذه المدرسة فكل طالب مشغول بشيء يهتم به ، ويجهد نفسه لفهمه أو حلّه ، وفي هذا حفظ لنشاطه وتجديد لسروره ، — ألم يقل أرسطو إنّ النشاط الحر المطلق عامل ضروري في السعادة والسرور ؟

والخصية الثالثة : أنّ ما يجري في هذه المدرسة جميعه يعبر عن النفس — فالطفل مائل وراء ما يعمله ، وتلمح دائماً شخصيته في مداركها وتعابيرها من مخارج عدة ، وهي متنوعة وكثيرة وميسرة كل التيسير في هذه المدرسة المثلى فنها : —

أولاً — المحادثة : وتكون بالتعبير الحر عن النفس وإبداء الرأي وطرح الأسئلة والمناظرة

ثانياً — الانشاء الحطي بأنواعه ، ويكون باختصار الدروس بلغة الطالب وانتقاء الملاحظات ووصف الطبيعة ، وكتابة قصص قصيرة ، وتحويل الشعر الى النثر ، والنثر الى الشعر

ثالثاً — القراءة الجهرية : وهي التلاوة على الجمهور بصوت عالٍ ، فيقرأ الطالب بفهم وروية على باقي الطلاب كأنه المعلم ، ونرى الطلاب يستمعون له بشوق ولذة .

رابعاً — الالقاء — ويشمل إلقاء القصائد المختارة والقطع النثرية والأمثال السائرة والنوادر والملح والفكاهات .

خامساً — الغناء ويكون بإنشاد القطع الشعرية القديمة والحديثة .

سادساً — الرقص التمثيلي ويكون بتمثيل روايات قصيرة بحركات فنية منسجمة .

سابعاً — الرقص البدوي وهو عبارة عن الدبكة وغيرها .

ثامناً — التمثيل ويكون بتمثيل بعض الروايات الشعرية أو النثرية ، ويكون بتمثيل بعض الدروس كالتاريخ والجغرافيا وحتى الحساب .

تاسعاً — الرسم بقلم الرصاص أو الطباشير الملوّن أو الزيت .

عاشراً — العمل اليدوي .

الحادي عشر — البستنة : وهي درس الحياة النباتية والدواجن وهي درس حياة الحيوان .

الثاني عشر — النجارة ومجالها واسع في صنع الأشياء النافعة الضرورية كالرفوف والمكاتب والخزائن والكراسي والمناضد والمقاعد .

الثالث عشر — الطهي وهو خاص بمدارس البنات .

الرابع عشر — الخياطة والتطريز وعمل الابرة والصوف وهذه أيضاً خاصة بمدارس الإناث .

في هذه الأعمال وما شاكلها يقف الطفل غير هياب ولا وجل ، ويظهر نفسه وينطق مداركه الكامنة ، فيندثر أثر التدليس من أعماله ويخلص في انجازها ، وأما المعنون فعليهم أن يساعدوا الطلاب على تهذيب أنفسهم بأنفسهم فيقدمون لهم أشياء ثلاثة لا رابع لها :— الرغبة والارشاد والمادّة ، وعلى الطلاب البقية من الجد والعمل والاعتماد على النفس — فهذا طريق غير ذي عوج ، وهذا هو الطريق المستقيم فمن سلكه اهتدى وكان النجاح حليفه .

أساس هذه المدرسة التعليم الذاتي أو تعليم النفس بالنفس : وهو أساس متين لا ينهار دعائمه ، وهو ما يعوز مدارسنا في المدن والقرى . وأمثال هذه المدرسة تدل على أن النمو يأتي من الداخل ولا يمكن أن يوضع من الخارج ، وان النفس تنمو داخليًا وبواسطة نموها تتسع قوى المدارك وتتجلى قوة التعبير ، وعلى هذا يكون واجب المعلم أولاً وآخراً : أن يشجع النمو — أي التعبير الذاتي .

لنفصل القول الآن في كيفية أو طريقة تدريس بعض المواضيع في هذه المدرسة المثلى :

يُدرس التاريخ بواسطة التمثيل ، فاذا ما مرَّ الطلاب بحادث مهم يمكن تمثيله يشرعون في ذلك بلا تردد فيراجعون الكتب والحكايات التاريخية والمراجع الاخرى حتى إذا ما ملكوا ناصية الموضوع بدأوا في نسج الرواية وأعداد الثياب وغير ذلك . ثم يمثلون المشهد والمعلمون يشجعونهم ويشوقونهم ويرشدونهم ويساعدونهم واخوانهم الباقون من لم يشتركوا في التمثيل ينظرون إلى المشهد وكتبهم أمامهم ، ومن وقت لآخر يصفقون استحساناً لما يبديه زملاؤهم ، وعلى هذا يفهم جميع الطلاب الدرس بشوق ونشاط زائدين ، وإذا طلب المعلم من فرقة أخرى أن تمثل درساً ما فلا تتأخر ، فالكل مستعد للقيام بما يطلب منه : ففي مثل هذه الحال نجد لدرس التاريخ تأثيراً كبيراً على الطلاب ، كما انه يعود عليهم بالنفع العظيم إذ تمكث الحقائق التاريخية ماثلة أمامهم . وأما في مدارسنا الحاضرة فالحقائق التي ينقلها الطالب بملة لأنه يصرف ساعاته الطوال في سماع المعلم يتلو أخبار الأولين والآخرين ، فتدخل هذه الأخبار من أذن وتخرج من الأخرى : وما أشد تلذذ الطالب بالدرس الذي يمثل أمامه ! وما أروع ما يفهم من روحه ، وما يدرك من حقائقه ! على أن التمثيل يدرّب قوتين كامنتين في الطلاب : وهما التخيل والحنان .

درس العلوم درس بارز في هذه المدرسة ، فاذا ما أعطي الطلاب درساً عن موضوع كورق الشجر ، يأتي كل طالب بأوراق تساعده على دراسته ، وما على المعلم إلاَّ أن يطلب من كل طالب ان يلاحظ الورقة ، ثم يخبر المعلم عن ملاحظاته ، فتجد الطلاب يظهرون قواهم الكامنة من حيث الطبيعة ، ويتدرّج معهم المعلم في الدرس بالسؤال والجواب حتى يصل الطلاب إلى نتيجة مرضية ، فيضطرون طوعاً بمعرفتها وتقوى قوة الملاحظة فيهم . وهنالك

جولات الطلاب والمعلمين في الحقول والحدائق والبساتين يقيد فيها كل طالب ما يلاحظه في دفتر خاص ، ويرسم الرسوم للايضاح ، وفوق كل ذلك يطلب المعلمون من الطلاب أن يتفننوا عن أعمار نصف الأشياء الجميلة التي يدرسونها في درس العلوم ، وهكذا يصبح درس العلوم أميل الى إنماء العاطفة بحياة الغير ودرس الطبيعة أكثر منه إلى حشو الدماغ. وبالجملة إلى الاعجاب بكل ما هو حسن وجميل ، وسأتحدث لكم على ذكر الاعجاب عن درس الرسم وأهميته في هذه المدرسة فأقول : —

إن ابراز النتائج الظاهرة أمرٌ لا يُهتم به في هذه المدرسة ، وقد يوجد ذلك ضرورة في الرسم لأن الفنان ينظر إلى النتائج المرسومة ، ومنها يقرأ أفكار الطفل الروحية الداخلية : وقد فحص أحد الفنانين عمل الطلاب في هذه المدرسة فوجده جيداً جداً ، مع ان المعلمين لا يعرفون الرسم كما يجب ، وقد تعلمه الطلاب من أنفسهم فبرعوا فيه . واليكم تقرير الفنان الذي زار هذه المدرسة : « لقد وصل الرسم في هذه المدرسة إلى أرقى درجة ممكنة لأن النتائج تعبر عن آراء الطلاب أنفسهم ولم تستعمل النماذج للرسم في هذه المدرسة ، فالطلاب يختارون نماذجهم بأنفسهم ويعتمدون على مداركهم ولا يبالون بالخطأ كما يُرى في غيرها من المدارس فكل طالب ينتقد نفسه بنفسه» ، وقد قال لي مدير المدرسة ما يأتي : « أعطيت كل طالب ورقة من شجر ما وقلت لهم : انعموا النظر فيها . ثم تحدثنا عن خصائصها حيناً ، وبعد ذلك طلبت منهم رسمها ، ولما فحصت النتائج وجدت فيها خطأً كثيراً ، فلم أقل للطلاب أخطأتم ولم أذهب الى اللوح الأسود لأبين الخطأ ، بل قلت : هل رسمكم في هذا القسم مثل الورق ؟ فقالوا : لا . فقلت : إذن ما هو الفرق ؟ فوجدنا الفرق ثم قلت : وكيف يمكنكم أن تغيروه ليصبح مثل الورقة نفسها ؟ وهكذا الى أن وصلنا الى النتيجة المطلوبة ، وبذا جعلت الطلاب يلاحظون خطأهم بأنفسهم ولم أبينه لهم . وأشار الفنان بعد فحص رسوم الطلاب الى انه وجدهم يعرفون كيف يستعملون الألوان ، وأنهم تدربوا على ذلك من أنفسهم ، وان المعلمين أخبروه أن بعضهم يذهبون الى ضفة النهر ليشاهدوا المناظر الجميلة فتثير فيهم الشعور بالجمال ، فلا يجدون طريقاً أقرب للتعبير عن ذلك الا برسمها : فهل من برهان أوضح على أن تعليم النفس بالنفس هو الطريق الى النجاح » .

هذا شيء عن التدريب العقلي في هذه المدرسة ، ولكن نفس الطفل لا يمكن أن تنقسم الى أقسام : فتدريب عقل الطفل يؤثر على نموه الخلقي .

ولقد مضى وقت كان يعطي فيه للمدرسة منحة خاصة على حسن النظام فيها ، وكان المفتشون يكتبون التقارير المفصلة عن ذلك ، فهذا أمرٌ غريب عجيب في تفسير غاية التربية والتعليم ، وإذا أردنا أن نكتب تقريراً عن نظام هذه المدرسة فيكون باختصار ، اذ لا نظام للمدرسة ، ولا حاجة اليها به لأن حب الطالب لمعلميه ولمدرسته يرتق هوى النظام والمحبة ولا يترك له مجالاً للتفكير في الخيانات ومخالفة النظام ، وحيثما توجد المحبة والاخلاص ، فلا مجال للخبث والغش ، ولا المراآة والخديعة لأن القوى المضغوط عليها هي التي تنفجر الى أعمال خبيثة حتى إذا لم تسر في طريق الخير والمحبة ، المحبة في هذه المدرسة نور ساطع والسرور انعكاسه : حدث يوماً أن كان معلم في المستشفى ، ومرض معلمان ، وتأخر بقية المعلمين والمدير لسبب ما نصف ساعة ، فأصبحت المدرسة خالية من المعلمين وعند ما وصل المدير الى المدرسة وجد الطلاب جالسين في صفوفهم يؤدون فروضهم حسب جدول الدروس كما لو كان معلمهم الى جانبهم ، وتاب بعض الطلاب الكبار في الصفوف الصغيرة عن معلميهم ، واهتموا بها فكانت المدرسة سائرة بهدوء ونظام : من هذا الحادث تبين أن التعليم الذاتي يحمل معه الآداب والنظام المدرسي ، وإذا كان لا لزوم للقصاص في هذه المدرسة ، فانه لا حاجة للمكافأة أيضاً لأن كل طالب يجد سروره في عمله ، وفخره في مدرسته ، واحترامه في معلميه ، ولا يسعى ليبرز على رفيقه .

إن التعليم عدوُّ الإنانية ، وغايته كما قلنا مساعدة النمو ، فهدفنا إذن أن نساعد الفرد على أن يتعدّى محيط فرديته ويهرب من نفسه الصغيرة : تدخل الأشياء التي تحيط بنا إلى أنفسنا وتصبح ملكاً لنا عن طريق المدارك الشعورية ، وبوساطة المدارك التعبيرية نخرج من أنفسنا إلى الأشياء التي تحيط بنا ، وهذان العاملان هما المظهران البارزان في التعليم الذاتي — فالتعليم الذاتي يوسع النفس ، ثم يسعى في نسيانها ، ويظهر حس الشعور الأخوي ، وأخيراً يوصلنا إلى السعادة الأبدية — الى مقت الأنانية : هذا ما يقوم به التعليم في هذه المدرسة المثل ، وكل طالب فيها سعيد بنفسه ، لا يهتم أن يتفوّق على غيره ، أو يذال جائزة ،

لأنهم لا يحبون أن يجعلوا من غيرهم عطايا لهم : ومن برز منهم في درس أو أمر ساعد إخوانه المقصرين ليرتقي عمل مجموع الصف في كل درس أو شيء .

المتأخرون في دروسهم لا تثبط عزائمهم بتقصيرهم ، والمتقدمون في دروسهم لا يتباطؤون بتقدمهم لأن المقصر الى المتقدم نجد كلاً جاداً في عمله مسروراً به . وحبّذا نفحة من هذه المدرسة تهب على مدارسنا فتنفي الطلاب حب النفس والغرور ، لأن حسن الأدب في المعاملة هو الغاية القصوى من تعلم الفضائل . فاذا أشبع محيط المدرسة بروح الوداد والإيثار ، والأخلاق الجيدة ، والخصال الحميدة بين الطلاب من نفسهم ، ساد اللطف بينهم ، وهو في حدّ ذاته إنكار الذات والاهتمام بالآخرين في جميع أعمالنا الاجتماعية .

يرى الزائر لهذه المدرسة التأهيل والترحيب به من كل فرد فيها كأنه صديق حميم أو رفيق كريم ، فهم يظهرون له كل لطف واعتناء ، وليس في ذلك تكلف لأنهم تدربوا عليه فأصبح مغروساً في طباعهم — أي أصبح طبيعة ثانية ، وإذا جاء هذه المدرسة متفقد تجتمع الطلاب حوله يداعبونه بكل احترام وإعزاز ، ولا يني أو يتأخر الطلاب الكبار عن مصاحبته والسير معه أو تشييعه الى باب المدرسة .

ومن مظاهر هذه المدرسة التي انفردت بها حب الجمال ، فيتجول الطلاب في البراري والحقول ، في الحدائق والبساتين ، مصطحبين دفاتر الرسم ، يرسمون فيها ما يناسب ذوقهم ، وما هو جميل في أعينهم . ومن أخبار هذه المدرسة أن طالباً في يوم من أيام الشتاء كان جالساً في غرفته فأطلّت الشمس عليه من وراء السحب ، فهبّ من فراشه وأخذ قلمه ودفتر رسمه ، ورسم هذا المنظر الجميل ، فكان حسن التعليل في التعبير عن المنظر السماوي عجباً ، وكانت للوحة آية في الابداع .

وأما الرقص البدوي أو الريفي والغناء في هذه المدرسة فحدِّث عنها ولا حرج ، لأنهما الظاهرة الخارجية لما تكنه بواطن الطلاب ، وهو دليلا السرور والفرح ، وابتهاج النفس والمرح : وترى الطلاب في غدوهم ورواحهم في الأرياف والجبال ينظمون الحلقات ويشرعون بالرقص والغناء ، وإذا وجدوا أولاداً صغاراً في طريقهم أخذوهم من أيديهم ودرّبوهم على ذلك وأدخلوا السرور الى قلوبهم .

وإذا مثّل طلاب هذه المدرسة رواية فلا يتدرّبون على تمثيلها كثيراً ، وذلك لأنهم أخرجوها بأنفسهم فتكون نتيجة التمثيل جيدة يعجب بها الحاضرون : وصفوة القول أن هذه المدرسة فريدة في بابها عزيزة على طلاّبها يتعلمون فيها من أنفسهم تحت ارشاد معلميهم ويجيدون ما يتعلمونه لأن الدافع إليه من الداخل .

ما هي المبادىء التي تتعلمها من هذه المدرسة ؟ إن تلك المبادىء كثيرة منها : —

أولاً — إن التعليم الحقيقي هو تعليم النفس بنفسها — أي التعليم الذاتي — وهو يحتاج لإظهار مكنونات النفس بانتظام . فمنذ ٢٥٠٠ عام علّم ارسطو — أكبر معلم رآه العالم — مريديه إن طريق الخلاص يكون في سلوك سبيل هو النفس . يقدر علماء التربية والتعليم أن يضعوا المبادىء الكثيرة ، ولكنهم لا يمكنهم أن يتقدموا خطوة واحدة عنّا في هذه الحقيقة . فالنمو حيث الحياة ، وجوهر النمو هو الاتساع الداخلي ، فجميع ما يوصل الى الكمال أصيل في كل إنسان وما عليه إلاّ أن يتحقق ذلك في نفسه ويسعى اليه .

إن فلسفة التربية والتعليم العملية موجودة فيما تقدم من هذه النظريات ، فما دمنا نتردد في الاعتقاد بصدقها والإيمان بحقائقها ، نكون قد أسأنا الى أنفسنا برعاية النتائج والظواهر الخارجية ، وجهلنا ما هو سر الحياة والنمو . إنه لمن السهل أن نعتقد بمبدإ التعليم الذاتي ونؤمن به ، غير أنه من الصعب أن نتمثل معناه الداخلي والعلمي .

إن الحلقات التي يقدر بها نمو كل شجرة من سنة لأخرى هي ذلك الاتساع الداخلي لتلك الشجرة ، وهو موجود في داخلها . نحن نفكر دائماً بشأن التعليم ، ونحن نضع نظماً له وقوانين ونقيد غيرنا بقواعد كلية وارشادات عامة ، فالذين ان حلقات نمو النفس تأتي من الخارج — إن هذا إلاّ وهمٌ وتضليل ، وغش للنفس ليس بالقليل .

إذا فرضنا ان المبادىء التي تسير عليها هذه المدرسة المثلى صحيحة فكيف يمكننا أن نعمل بها ؟ السر في السكان لا في المكان ، السر في المعلمين لا في المتعلمين . فهل معلمو هذه المدرسة قد نزلوا من السماء ، وقد اطلعت شخصيتهم على المدرسة فجعلتها مدرسة مثلى : وأمثال هؤلاء المعلمين كثير بين المعلمين في جميع المدارس ، إذن كيف نكوّن مثل هذه المدرسة المثلى ؟ هذا سؤال عويص أتدبر ان أجيب عليه بما يأتي : —

١ — إني لا أظن أن معلمي هذه المدرسة قد نزلوا من السماء حقًّا ، أما أن لهم شخصية ممتازة ومغناطيسية ، فذلك مما لا ريب فيه ، إذ إن هذه القوى المغناطيسية كامنة في كل واحد منا ، وأما أن لهؤلاء المعلمين مواهب طبيعية فذلك مما لا مرية فيه أيضاً — فالشخصية البارزة والموهبة الطبيعية قد كوَّنتا هؤلاء المعلمين فأصبحوا مُثلاً عليا للارشاد والتعليم الذاتي . ولقد أسعد الحظ هؤلاء المعلمين فأوجدهم في مكان لائق لاخراج الكوامن ، واتباع الطريق التي اختطوها فأوجدوا مدرسة مثلى — مدرسة نموذجية — سينقل عنها العالم بأسره ، وسيكون لها شأن عظيم في كل اقليم ، وستنتشر مبادؤها في القريب العاجل ، وقد شرعت المدارس الابتدائية في بلاد الانكليز باتباع تعاليمها والسير بموجبها ، وقد سرت العدوى منها إلى أكثر المدارس — وطرق التعليم كالمرض تسري بالعدوى ، فاذا أصبح التعليم الذاتي وجسده متبعاً في جميع مدارسنا تحت القائدة المنشودة ، وحصل المطلوب ، ولكن ما الذي يقف حجر عثرة في تغيير النظام الحالي في التعليم ؟ إنه ليس الامتحانات والنتائج الخارجية فقط ، بل الأصول المتبعة نفسها — إن الاتجاه نحو التغيير المطلوب هو ما تسعى وراءه البلاد المتمدنة بعد هذه الحرب التي لم تبق ولم تذر ، والتي دكت معالم وحصوننا ، ودرست تعاليماً وأصولاً ولكن مهما أتقنَّا أو أكملنا أحوالنا جاءت معقدة عقيمة لأن هنالك نزاعاً قديماً في نفس كل انسان — نزاعاً بين الجمود والحياة . قد نظن أن ايجاد أنظمة وقواعد التربية والتعليم ممكن نظريًّا ولكن الحقيقة غير ذلك ، فيغلب أن يقوم الواحد منا بعمل غيره عن طريق التدخل : وأضرب مثالاً لذلك بأن نجد المفتشين يتدخلون أحياناً في شؤون المديرين ، والمديرين يتدخلون في شؤون المعلمين ، فيرتب المفتشون المناهج ، ويقررون ساعات العمل حتى انهم ينظمون جداول ترتيب الدروس ، وكذلك يعينون العمل والمادة التي يجب أن تدرس في كل فصل . واما المعلمون فيجدون حتى لا يدعون للطلاب مجالاً يعملون فيه شيئاً من أنفسهم ، بل هم رقباء عليهم ، وعلى هذا يصبح المرء مساعداً ومسيراً في جميع أعماله ، فيتحطم الاعتماد على النفس وتقضي على آثار الاستقلال الذاتي كما وجدنا فيما تقدم وهو ان المدارس تسعى وراء الظواهر وأتمام المناهج والامتحانات والعلامات وتحضير الدروس : قلنا ان الأعمال الآلية قد أخذت تخالف الأعمال النفسية ، وقلنا

إن مظاهر التعليم الخارجية التي استولت على المدارس حتى أصبحت الغاية المقصودة التي يجري وراءها المفتش والمدير والمعلم والتلميذ هي اجتياز في الامتحان والحصول على العلامات الجيدة ، بينما نجد النمو الداخلي في الطلاب وهو الغاية المنشودة — مهملاً كل الاهمال ولا يعتد به ، بل يقيد بالحركات والاعمال الآلية أي الميكانيكية . والذي هو أدهى من هذا وأمرّ أن المعلمين الذين تخرّجوا كالآلة المسيرة سيخرجون طلاباً مثلهم مضطرين مسيرين في حياتهم . فالأمل ضئيل والطريق مظلم والخلاص صعب ومستعر إلاّ إذا مشينا مشية الثيك ، وسعينا المسعى الحثيث ، سعي الجاد المشمر ، ونظرنا إلى المستقبل نظرة المتفائل وقلنا : إن غداً لناظره قريب ، ولولا الأمل لبطل العمل .

نأمل أن تتلاشى موجة الفحوص الجارفة في الصفوف الابتدائية وتنجلي عن الطلاب أوضارها لأن ليس أضر على نفوس الطلاب الصغار من تعرضهم للامتحانات وهولها — هذه الآفة التي لا بد منها والتي هي شر في حد ذاتها .

لقد تقرر أخيراً في البلاد المتمدنة اعفاء الطلاب الصغار من الامتحانات ومن شبحها المخيف الذي يلازم الطالب الصغير وما قريب سوف يتقرر اعفاء طلاب المدارس الابتدائية منها الاّ في السنة السابعة وهي الأخيرة من سني دراستهم في المدارس الابتدائية — فهذا يبشر بالنجاح الباهر وبالأمل الزاهر . إننا نرغب أن يفسح المجال للمعلم للعبور النشيط في عمله ليخطو الى الأمام بقدم ثابتة وعزيمة قوية وراء غايته المنشودة . ولن يأتي التقدم في التربية والتعليم بعد اليوم من المراقبة الشديدة ، وما مصدره الاّ المدارس التي يتلألأ فيها نور الحقيقة — نور التعليم الحقيقي أو الذاتي — وإن بعد الفجر صبحاً ، وان بعد العسر يسراً .

اذا أردنا أن تكون مدارسنا مبعث النور الهادي في ظلمات هذه الحياة المطبقة ، وجب علينا أن نترك المعلمين وشأنهم — أن ندعهم يخطون خطواتهم الواسعة ، ويسيرون في طريقهم المعبد الذي سيؤدي الى النجاح ان شاء الله . سنحاول إن رحلاتي لأوربا لا سيما لانكلترا وزياراتي لمدارسها في المدن والقرى وشهودي التدريب والدرس وتخصصي في التربية والتعليم وفي الكشافة والرياضة البدنية والالعاب الانكليزية ، قد جعلتني متهائماً

أنعي على بلادي ما أجده فيها من الأساليب السقيمة والطرق القديمة . كلاّ . فقد صيرتني هذه الرحلات والاختبارات متفائلاً أكثر من ذي قبل . فلقد تعلمت من المدارس الكثيرة التي زرتها أن في كل معلم وطفل قوًى كامنة ، وانه من السهل ابراز هذه القوى فيهما واستخدامها . فالتفاؤل لا التشاؤم هو ما يحدو المرء لرفع مستوى المقدرة أو المعرفة البشرية ، وان موجة واحدة من الفكر والسرور قد ترتفع بنا إلى أوج العلياء ، على أنه يجب ألاّ نقنط إذا تأخر مجيؤها أو إن لم تعم على طول الساحل ، وهذه الموجة وإن تأخرت آتية لا ريب في مجيئها ، وستتدرّج بالتدفق الينا حتى تشمل الساحل وتطم على الداخل ، وانى متفائل جد التفاؤل ، والتفاؤل يفعم قلبي والأمل يزيدني وثوقاً في أن نفوس المعلمين والمطبوعين المخلوقين متدأب وتتعب ، وتسعى وترغب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُرد الى قليل تقنع

لا شك في أن النفوس المستنيرة ستسير بالطلاب الى حيث النشاط والسرور ، الى حيث السعادة والحبور ، ما دمنا نعلم أن التعليم اليوم هو غيره بالأمس ، وأن ما يتعلمه الطالب من نفسه هو الذي يثبت وينفع ، وهو الذي يفيد ويمتع ، وهو الذي يجلب الخير ويمهد الطريق ويجعل الحياة لذيذة والعيش رغداً والتعليم سهلا .

إذا اقتنع كل معلم بأنه صاحب رسالة أخلص في عمله مهما تضؤلت عمالته ، ومهما ضاءت حالته ، لأنه قبل أن يكون تراساً وأن يكون الشمعة التي تحرق نفسها لتضيء على غيرها ، وأخذ دائماً وأبداً يردد : فأما الزبدُ فيذهبُ جفاء ، وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض .

مسكين المعلم المخلص فانّ مثله كمثل النبي صاحب الرسالة يلاقي ما لاقى من العذاب ، ولكن يجب أن يصبر ويتحمل كل أذى ، فلقد أجاد المرحوم شوقي طيب الله ثراه حيث قال:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشيء أنفساً وعقولا
يا أرض مد فقد المعلم نفسه بين الشموس وبين شرفك حيلا

فيأيها المعلمون المخلصون ! يأيها المعلمون الحقيقيون ! أصبروا وصابروا ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فالله بكل شيء عليم ، وسيأتي اليوم الذي يقدر فيه عملكم ، وترفع درجتكم الى المقام اللائق بكم ، وليس ذلك اليوم ببعيد ، وليس ذلك بعزيز على الجامعة العربية التي ستعمل على توحيد الثقافة في جميع الأقطار العربية ، والله من وراء القصد ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

بقلم الدكتور شريف الشامي